استقراء الأحداث التاريخية من كتب النوازل الفقهية

(سقوط الأندلس نموذجاً)

إعداد الباحثة :

منال موسى راجي العنزي

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الخامس ٢٠١٩م

استقراء الأحداث التاريخية من كتب النوازل الفقهية (سقوط الأندلس نموذجاً)

منال موسى راجي العنزي
Mnal94379@gmil.com

الملخص:

يتناول هذا البحث الأحداث التاريخية في أواخر العهد الأندلسي، والاضطهاد الذي تعرض له المسلمون في فترة السقوط إذ أدخلوا في الدين النصراني قهراً، والنوازل الفقهية التي حصلت لهم وتستلزم سؤال العلماء للبت فيها، ونعرض في هذا البحث ثلاثة نوازل، أولاً نازلة في أداء فريضة الصلاة في حال الإكراه، ثم سقوط فرض الحج عن أهل الأندلس لعدم الاستطاعة ، وأخيراً نازلة في الهجرة من بلاد الكفر فراراً إلى بلاد الإسلام. وتوصلت الدراسة إلى نتائج، أهمها: أهمية قراءة التاريخ وما مر به من حوادث فيها من العبر، حتى يستفيد منها أولي الألباب، لإسقاطها على الواقع. أهمية علم فقه النوازل في كل عصر، لتجدد المسائل التي لا غنى لها عنه. كما تتضح لنا قدرة الفقه الإسلامي وفعاليته لتقديم الحلول الناجحة التي تستجيب لواقع أي عصر ومستجداته. ودور العلماء في تثبيت أهل الأندلس على دينهم، من خلال إظهار الصورة السمحة للدين الإسلامي العظيم، وأن الله لا يكلفُ نفساً إلا وسعها. بالإضافة إلى عظمة الدين الإسلامي وسماحة مبادئه على الإنسانية، وأنه أعظم دين عرفته البشرية من حيث التكاليف وأن بعضها قد يصل إلى حد الإسقاط عند العجز.

الكلمات المفتاحية: استقراء الأحداث التاريخية – كتب النوازل الفقهية –(سقوط الأندلس نموذجاً).

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الخامس ٢٠١٩م

An extrapolation of historical events from the books of jurisprudence (The fall of Andalusia as a model)

Manal Musa Raji Al-Anzi
Mnal94379@gmil.com

Abstract:

This research deals with historical events in the late Andalusian era, and the persecution to which Muslims were subjected during the fall period, when they were forced into Christianity by force, and the jurisprudential calamities that occurred to them and necessitate asking the scholars to decide on them, and we present in this research three catastrophes, first coming down in performing the obligatory prayer in The state of coercion, then the imposition of the Hajj on behalf of the people of Andalusia fell due to the inability to, and finally coming down to emigration from the countries of infidelity to flee to the countries of Islam. The study reached results, the most important of which are: the importance of reading history and the incidents it has experienced in it, so that the first beneficiaries can benefit from it to bring it down to reality. The importance of the science of catastrophes in every age, to renew the issues that are essential. It is also clear to us the ability and effectiveness of Islamic jurisprudence to provide successful solutions that respond to the reality of any era and its developments. And the role of scholars in stabilizing the people of Andalusia on their religion, by showing the tolerant image of the great Islamic religion, and that God does not cost a soul except its power. In addition to the greatness of the Islamic religion and the tolerance of its principles over humanity, it is the greatest religion known to mankind in terms of costs, and some of them may amount to the projection of a deficiency.

Key words: extrapolation of historical events - Books of doctrines of jurisprudence - (The fall of Andalusia as a model).

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله... أما بعد:

فالتاريخ كالمصباح المضيء للعقول البشرية في الماضي والحاضر، وهو الطريق الأسرع لتصحيح سلوكيات الناس إذا عرفوا تاريخهم، وقرأوا في أحداثه الماضية، فكما قيل: أقرأوا التاريخ إذ فيه العِبر.. ضل قومٌ ليس يدرون الخبر

وكما أورد لنا ابن تيمية – رحمه الله – أثراً عن الفاروق عمر رضي الله عنه حيث قال: (إنما تنقصُ عُرى الإسلام عُروةً عُروه إذ نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية)[١]، فالتاريخ والتاريخ وحدهُ، هو الذي ينضج عقولنا، ويهيئنا للنظر إلى الأشياء النظرة الثاقبة الصحيحة في معمعة الأزمات، فدراسة التاريخ لها أهمية عظيمة، فالتاريخ كأنه معملٌ هائل أجرت فيه الأحداث تجارب لا حصر لها على الرجال، والاقتصاد، والدول، ثم هو كان خير مرشد إلى طبيعة البشر، وتفسير الحاضر، والتنبؤ بما سيحصل مستقبلاً، فتغير الأحوال والظروف ينتج كمية هائلة من المستجدات والقضايا، والتي من أهمها النوازل الفقهية، والنازلة كما في اللغة[٢] تدل على الشدة، إذ المجتهد يلاقي شدة في

١) لم أقف على تخريج هذا الأثر عن عمر بن الخطاب . رضي الله عنه . ولكن فيما معناه عن عمر في مصنف ابن أبي شيبة، ٦ / ٤١٠، وهذا الأثر أورده ابن تيمية في كتابه: مجموع الفتاوى، ١٠ / ٣٠١، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، دار النشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، سنة الطبع: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٢) العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن الفراهيدي البصري،٧ / ٣٦٧ ، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار النشر: دار ومكتبة الهلال، مختار الصحاح، لزين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، ١ / ٣٠٨ ، تحقيق: يوسف الشيخ محمد ، دار النشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت– صيدا ، الطبعة: الخامسة، سنة الطبع: ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

استخراج الحكم الشرعي لها، وهي القضية المستجدة التي تحتاج إلى فتوى بصورة سريعة، ففقه النوازل يقوم على الدراسة الشاملة الكاملة لجميع ما يتعلق بهذه النازلة على كافة أبعادها الشرعية والتاريخية والاجتماعية، ثم إعطائها الحكم الشرعي المناسب لها، بما يدل على قدرة الفقه الإسلامي وفعاليته لتقديم الحلول الناجحة الكاملة السريعة التي تستجيب لواقع أي عصر ومستجداته بما يظهر كمال هذه الشريعة، وحرص المسلمين على الاستجابة لأمر الله وعبادته على علمٍ وبصيرة، عن طريق سؤال أهل العلم وتطبيق قول الحق – تبارك وتعالى–: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)[١].

فالاجتهاد في حكم النازلة يكون فرض عين على المجتهد الذي يتعيَّن عليه الاجتهاد واستفتاه من لا يسعه سؤال غيره، ففي كل حقبة من حقبات التاريخ، تتجدد على إثرها نوازل تبعاً لها، تحتاج على وجه السرعة فتوى من أهل العلم، فأحببت من هذا المنطلق أن أدرس في هذا البحث الحقبة الأخيرة من سقوط الأندلس، إذ تبيَّن لي أن فيها الكثير من النوازل التي تحتاج إلى جمع هذه الفتاوى ثم ذكر السياق التاريخي لها، فبالله الإعانة والتوفيق.

أولاً: أهمية الموضوع و سبب اختياره:

١ . يتبيَّن من خلال دراسة الموضوع أهمية فقه النوازل في كل عصر بحيث تكون الحاجة ماسة إليه.

٢ . فقه النوازل يقوم بمعالجة القضايا المستجدة في كل عصرٍ من العصور.

٣ . إبراز القدرة الفعَّالة للفقه الإسلامي في تقديمه للحلول الناجحة التي تستجيب لواقع أي عصر.

٤ . إنارة السبيل أمام المسلمين في توضيح الحكم الشرعي للنوازل المستجدة بحيث يعبد المسلم ربه على علمٍ وهدىً وبصيرة.

١) سورة النحل من آية رقم ٤٣.

٥ . يتبيَّن من خلال دراسة الحقبة التاريخية الأخيرة للأندلس وما توالى فيها من نكباتٍ على المسلمين أن الدين الإسلامي دين يُسر ولا يُؤاخذ المسلم بما استكره عليه وقلبه مطمئنٌ بالإيمان.

ثانياً: الخطة البحثية:

١ . سوف اتبع المنهج الاستقرائي من خلال دراسة كتب الفتاوى في النوازل الفقهية في حقبة تاريخية.

٢ . الاعتماد على أمهات الكتب في المصادر والمراجع الأصلية في الجمع والتوثيق.

ترقيم الآيات و بيان سورها.

٣ . تخريج الأحاديث وبيان ما ذكره أهل الشأن في درجتها . إن لم تكن في الصحيحين أو أحدهما.

٤ . تخريج الآثار من مصادرها الأصليّة.

٥ . التعريف بالمصطلحات وشرح الغريب.

٦ . العناية بقواعد اللغة والإملاء وعلامات الترقيم.

٧ . الترجمة للأعلام غير المشهورين.

٨ . الخاتمة وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

٩ . ثم ذكر المصادر والمراجع.

ولتحقيق هذا المنهج كانت خطة البحث تشتمل على: مقدمة، ومبحثان، وخاتمة تحتوي على أهم النتائج والتوصيات.

وسوف تكون خطة البحث كالتالي:

وقد قسمتها إلى مبحثان:

- **المبحث الأول:** في فقه النوازل وضابطها.

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول:** تعريف النوازل، وبيان ضابطها.
- **المطلب الثاني:** أهمية فقه النوازل.
- **المبحث الثاني:** نماذج على استقراء التاريخ في مسائل النوازل الفقهية.

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** نازلة في أداء الصلاة لأهل الأندلس الذين نُصِّرُوا قسراً.
- **المطلب الثاني:** نازلة في سقوط فرض الحج عن أهل الأندلس لعدم الاستطاعة.
- **المطلب الثالث:** نازلة في الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام.

ثم الخاتمة: وتشمل أهم النتائج والتوصيات.

ثم ذكر المصادر والمراجع.

المبحث الأول: في فقه النوازل وضابطها:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف النوازل وبيان ضابطها:

أولاً: تعريف النوازل لغةً: جمع نازلة، والنازلة، هي: الشديدة من شدائد الدهر، تنزِلُ بالقوم[١]، وجمعها: النوازل، والنزول: الحُلُول، وقد نزلهم ونزلَ عليهم ونزل بهم ينزل نُزولاً ومنزلا[٢]، وهي كلمة صحيح تدلُّ على هبوط الشيء ووقوعه[٣].

ثانياً: تعريف النوازل اصطلاحاً: هي الحادثة التي تحتاج إلى استنباط حكم شرعي لها، والواقعات: الفتاوى المستنبطة للحوادث المستجدة[٤]، وقال ابن القيّم – رحمه الله –: (وقد كان أصحاب رسول –صلى الله عليه وسلم– يجتهدون في النوازل ويقيسون بعض الأحكام على بعض، ويعتبرون النظير بنظيره)[٥].

ثالثاً: بيان ضابطها: أن هذه الواقعة الجديدة أو النازلة لم يسبق وقوعها من قبل، وتستدعي على الفور بيان حكمها الشرعي، وهي كل ما يقع للناس من المسائل والقضايا التي تحتاج بياناً شرعياً فيها، ومن هنا يتبيَّن لنا الرابط بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي للنازلة، فالمعنى اللغوي يدل على الشدَّة،

---

١) العين، ٧ / ٣٦٧، مختار الصحاح، ١ / ٣٠٨.

٢) لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور، ١١ / ٦٥٦، دار النشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة، سنة الطبع: ١٤١٤هـ.

٣) مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس القزويني الرازي، ٥ / ٤١٧، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار النشر: دار الفكر، سنة الطبع: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٤) معجم لغة الفقهاء، لمحمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي، ٤٩٧، دار النشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف با بن قيم الجوزية،١/ ٢٨، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، شارك في التخريج: أبو عمر أحمد عبد الله أحمد، دار النشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٣هـ.

وكذلك المعنى الاصطلاحي حيث يعاني المجتهد الفقيه من استخراج الحكم الشرعي لهذه الحادثة الجديدة، وبهذا يتضح لنا قدرة الفقه الإسلامي على احتواء كل حادثة جديدة تستدعي على الفورية حكم شرعي فيها، فالفقه الإسلامي يتجدَّد ولا يجْمُدْ، حيث يأخذ كل واقعة بخصوصها فيدخلها تحت حكمها الشرعي حسب تحقيق المناط[١]، فإن جاء زمن آخر وجددت تلك الواقعة على صورة أخرى هنا يتغيّر تحقيق مناطها، فَيُدْخلُها الفقهُ حينئذ تحت حكم يخصها[٢].

المطلب الثاني: أهمية فقه النوازل:

١ . فقه النوازل يقوم بمعالجة القضايا المستجدة في كل عصرٍ من العصور.

٢. إبراز القدرة الفعَّالة للفقه الإسلامي في تقديمه للحلول الناجحة التي تستجيب لواقع أي عصر.

٣ . يظهر في فقه النوازل وسرعة استجابته لأي واقعة مستجدة الكمال والشمول للشريعة الإسلامية وقدرتها على استيعاب تحديات أي عصر من العصور.

٤ . إنارة السبيل أمام المسلمين في توضيح الحكم الشرعي للنازلة بحيث يعبد المسلم ربه على علمٍ وهدىً وبصيرة.

---

١) تحقيق المناط معناه: أن تكون القاعدة الكلية منصوصاً أو متفقاً عليها، ويقوم المجتهد في تحقيقها في الفرع ، والمراد بالمناط هو: ما تعلق بالحكم وهي العلة التي رتب عليها الحكم في الأصل. انظر: روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، الشهير بابن قدامة المقدسي، ٢ / ١٤٥، دار النشر: مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٢) الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية، عابد بن محمد السفياني، ١ / ٥٤١، وهي رسالة دكتوراه من كلية الشريعة بجامعة أم القرى، الناشر: مكتبة المنارة، مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، نوازل الزكاة «دراسة فقهية تأصيلية لمستجدات الزكاة»، لعبد الله بن منصور الغفيلي، ص: ٢٧، دار النشر: دار الميمان للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية، القاهرة – جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

٥ . الأجر العظيم الذي أعدَّهُ الله – تبارك وتعالى– للمُجتهد في أنه إذا أخطأ فله أجر وإن أصابَ فلهُ أجران.

٦ . الحرص على تأدية الأمانة العظيمة التي حمَّلها الله – سبحانه وتعالى – للعلماء، فكان لازماً عليهم التصدي والاجتهاد في بيان الحكم الشرعي لكل نازلة تحتاج بصورة سريعة إلى فنوى شرعية[١].

١) الفِقهُ الميَسَّر، للدكتور: عَبد الله بن محمد الطيّار، والدكتور: عبد الله بن محمّد المطلق، والدكتور: محمَّد بن إبراهيم الموسَى، ١٣ / ٧ ، ٨ ، دار النشر: مَدَارُ الوَطن للنَّشر، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى ، سنة الطبع: ١٤٣٢/ ٢٠١١، فقه النوازل في العبادات، لخالد بن علي بن محمد بن حمود بن علي المشيقح، ص٢ ، ٣ ، فقه النوازل للأقليات المسلمة «تأصيلا وتطبيقا»، للدكتور: محمد يسري إبراهيم، ١ / ٦٣ ، أصل الكتاب: رسالة دكتوراه في الفقه الإسلامي من كلية الشَّريعة والقانون بجامعة الأزهر، دار النشر: دار اليسر، القاهرة – جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ سنة الطبع ٢٠١٣ م.

المبحث الثاني: استقراء الأحاديث التاريخية من كتب النوازل الفقهية

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نازلة في أداء الصلاة لأهل الأندلس الذين نُصِّرُوا قسراً

أولاً: الفتوى للنازلة:

أرسل أهل الأندلس للمفتي أحمد بن بوجمعة المغراوي يستفتونه عن حالهم مع ما افترضه الله عليهم، فكان رده – رحمه الله تعالى –: (الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا، إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إنشاء الله، من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثو سبيلا لسلف الصالح في تحمل المشاق، وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا، وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حق هب حسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا. بعد السلام عليكم من كتابه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده، وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيد الله تعالى أحمد بن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني، كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، مؤكدًا عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور، وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع، وأن الملك الله ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله فاعبدوه، واصطبروا لعبادته فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء؛ لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم والغسل من الجنابة ولو عومًا في البحور وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحًا بالأيدي للحيطان، فإن لم يمكن ف المشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد، إلا أن يمكنكم الإشارة إليه، بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به، فاقصدوا بالإيماء، نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله عليه

السلام: "فآتوا منه ما استطعتم، وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام، أو حضور صلاتهم، فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله وإن كان لغير القبلة تسقط فيحقكم كصلاة الخوف عند الالتحام)، ثم ختمها بقوله: (وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إنشاء الله على حسب ما تكتبون به وأنا أسأل الله أن يبدل الكره للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرًا بحول الله من غير محنة ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ولابد من جوابكم والسلام عليكم جميعًا)[١].

ثانياً: نبذه مختصرة عن واقع الأمة في هذه الحقبة التي وقعت فيها نوازل تستلزم الاستفتاء فيها.

فكما حكى لنا التاريخ أنه عندما دخل الفاتحون المسلمون الأندلس كانوا نموذجاً عادلاً، فقد كانوا على إلمامٍ تام بآداب الجهاد ومعاملة الغير المسلمين، من محاربٍ وذمي، ومراعاة الفروق بينهم، بما أظهر سماحة الدين الإسلامي وعدالته، في شتى المجالات، مما رغَّبَ الكثير منهم إلى الدخول في الدين الإسلامي والانخراط في تعلمه وتعليمه والعمل به، فالتاريخ كان خير شاهد على عدل الفاتحين، وأنهم لم يجبروا أحداً على دخول الإسلام، أو المساس بعقائدهم أو أمورهم الخاصة من عباداتهم وأماكنها، من الكنائس وغير ذلك من أمور تعبدهم[٢]، ولكن السؤال هنا: هل قُوبل المسلمون بالمثل؟ وهل ردت المعاملة الحسنة بمثلها؟

بل عندما انقلب الحال، وجد المسلمون منهم أشد وأقسى أنواع التعذيب التي شهدتها الإنسانية، بل تلقوا كل ما لا يخطر على قلب بشر من التعذيب

١) انبعاث الإسلام في الأندلس، لعلي بن محمد المنتصر بالله الكتاني، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، دولة الإسلام في الأندلس، لمحمد عبد الله عنان المؤرخ المصري، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

٢) التاريخ الأندلسي من الفتح حتى السقوط، للدكتور: عبد الرحمن علي الحجي، ص١٥٨، دار النشر: دار القلم، دمشق بيروت، الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٢هـ ١٩٨١م.

والتنكيل والإهانة، وكل هذا تحت مسمعٍ ومرأى من الكنيسة، بل ومباركتها للمحاربين الذاهبين إلى الأندلس.

ولهذا يصح تسميتها فعلاً بالحروب الصليبية؛ لأن الهدف يظهر منها أنه إزالة الإسلام والمسلمين من الأندلس بل حتى أثره[١].

وكان الوقت مناسباً لهم إذ كان المسلمون في حالة من التفرق والعصبية وهو ما يسمى بوقت (ملوك الطوائف) فقد تفرقت في المدن، ولم يكن هم أحدهم إلا الخنوع والخضوع على أعتاب الملوك النصارى، ليستعدوا بعضهم بعضاً، ليس لقضيةٍ شريفة محترمة، بل لاستقطاع حصنٍ من مملكة شقيقة مسلمة، فقد كانوا أسوأ قدوة، وقد انتابهم من الضعف والخوان والركون إلى حياة الرفاهية، الشيء الكثير، لدرجة النسيان بأنهم مسئولون عن شعوبٍ وأوطان، فالواحد منهم لم يعد يهمهُ إلا نفسه حتى في سياستهم الداخلية على رعاياهم، عاملوهم بالقسوة والظلم ، فقد كانوا يُثقلون عليهم بالفروض والمكوس لملء خزائنهم، وتحقيق ترفهم وبذخهم بلا رادعٍ من أخلاقٍ ولا دين، فكما وصف لنا الحال الفيلسوف ابن حزم[٢] وقد كان شهد بنفسه أحداث العصر وخاضها، عندما كانت في بدايتها إبان قوتها، وقبل أن تنحدر إلى أفضع صور الذلة

١) المصدر السابق، ص: ٥٣٢.

٢) هو الإمام ذو الفنون والمعارف، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الأندلسي القرطبي، صاحب التصانيف العظيمة، ولد أبو محمد بقرطبة، في سنة أربع و ثمانين و ثلاث مائة ، نشأ في بيت رفاهية ونعيم، كان ذكياً مفرط الذكاء، ذو ذهنٍ سيَّال، وكان أبوه من كبار أقوم في قرطبة، كان ماهراً في الأدب والشعر، وفي المنطق وأجزاءٍ من الفلسفة، فأثرت فيه و كان ينهض بعلومٍ جمَّةٍ، ويجيد النقل و يحسن النظم، وَيُحْسِنُ النَّظم والنثر، وكان من أجمع أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام، وأوسعهم فيه معرفة، أقبل على علوم الإسلام حتى نال منها الشيء الكثير، له مصنفاتٌ جليلةٌ عظيمة منها، أكبرها كتاب: الإيصال إلى فهم كتاب الخصال، في خمسة عشر ألف ورقة ، وكتاب: شرائع الإسلام في مجلدان، وكتاب: المحلى في شرح المجلى بِالحجج وَالآثَار في ثَمَانِي مُجَلَّدَا ، توفي . رحمه اله . يوم الأحد لليلتين بقين من شعبان سنة ست وخمسين و أربع مائة، فكان عمره إحدى و سبعين سنةً و أشهراً. انظر: سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، دار النشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، سنة الطبع: ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

والمهانة، إلى أن وصل الحال بملوك الطوائف إلى الانحلال والتراخي على أعتاب ملوك النصارى[١].

هذا الحال مع الملوك أما حال عامةُ الناس في ذلك الوقت فهو حال الغريق الذي يطلب العون ويأمل في النجاة، فقد سقطت ثغور المسلمين الأندلسية الممزقة ثغراً ثغراً في يد النصارى، وقد كانوا يريدون إخضاع الأندلس جميعاً تحت سلطانهم، فاتجهوا نحو آخر معقل من معاقل المسلمين وهي غرناطة، إذ كان المسلمون يتجهون إليها بعد سقوط بقية المدن والضواحي، ويتحصنون بها، فاتجه النصارى نحو غرناطة وأحكموا عليها حصاراً طويلاً، ودافع المسلمون عنها دفاعاً مستميتاً، (ضرب فرناندو حول الحاضرة الإسلامية الحصار الصارم، وصمم على متابعته حتى تفتتح أو تستسلم...، ولم يترك وسيلة لإحكام الحصار وإرهاق المدينة المحصورة، وإرغامها على التسليم، فقطع جميع علائقها مع الخارج، سواء من البر أو البحر، ورابطت السفن الإسبانية في مضيق جبل طارق، وعلى مقربة من الثغور الجنوبية لتحول دون وصول أي إمدادات[٢]، دافع المسلمون عن مدينتهم دفاعاً ظهرت فيه البطولة والقوة، سبعة أشهر، حتى خارت قواهم مع قلة العدة والعتاد.

فهادنوهم على التسليم، فسُلِّمت غرناطة في الحادي والعشرين من محرم سنة ٨٩٧ هـ، بعدما كُتبت العهود والمواثيق بين ملك غرناطة أبو عبد الله الصغير، من الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا، والتي من بين بنودها: (يتعهد جلالتهما، وخلفاؤهما إلى الأبد بأن يترك الملك المذكور أبو عبد الله و القادة و الوزراء و العلماء و الفقهاء و الفرسان و سائر الشعب ، تحت حكم شريعتهم، وألا يؤمروا يترك شيءٍ من مساجدهم وصوامعهم، وأن تُترك لهذه المساجد مواردها كما هي. وأنه إذا قام نزاعٌ بين المسلمين فُصل فيه وفقاً لشريعتهم وتولاه قُضاتُهم..)[٣]، لكن سرعان ما نُقضت العهود وبدأت الكنيسة

١) دولة الإسلام في الأندلس، ٢ / ٤١٩.
٢) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، لمحمد عبد الله عنان، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة: الثالثة، سنة الطبع: ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.
٣) المصدر السابق الصفحة نفسها.

تكشر عن أنيابها، ضد المسلمين، إذ ما زالت الكنيسة تضغط على الملكان، بأمر المسلمين إما بإجلائهم، أو بإرغامهم على دخول النصرانية بالقوة والإرهاب، وهكذا اجتاح الدين النصراني أهل غرناطة قسراً، فأصدر فرناندو وإيزابيلا أمراً ملكياً خاصاً خلاصته: (لما كان الله اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، فإذا كان بها بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم خوفاً من أن يتأخر تنصيرهم، أو بأولئك الذين نُصِّروا لئلا يُفسدوا إيمانهم، ويُعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال)[١].

كان هذا القرار ظاهرياً فقط، وإلا فإنه يُؤول إلى إبقاء المسلمين ثم إجبارهم على التنصير بالقوة والإرهاب، وهذا ما حصل فعلاً، فأدخلوا النصرانية على كرهٍ منهم، ولم يبقى فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله . صلى الله عليه وسلم . جهراً إلا من يقولها في نفسه، وفي قلبه، وفي خفية من الناس . ولا حول ولا قوة إلا بالله . ، وجُعلت النواقيس في صوامعها بعد الآذان، وفي مساجدها الصور والصُلبان، بعد ذكر الله . تعالى . وتلاوة القرآن، فكم فيها من عينٍ باكية، وكم فيها من قلبٍ حزين، وكم فيها من الضعفاءِ والمعدومين، لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم، قلوبهم تشتعلُ ناراً، ودموعهم تسيلُ سيلاً غزيراً مدراراً، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير، والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث، والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم، ولا على نهيهم، ولا على زجرهم، ومن فعل ذلك عُوقب أشد العقاب، فيا لها من فجعة ما أمرها، ومصيبة ما أعظمها، وأضرَّها، وطامةٌ ما أكبرها[٢].

١) المصدر السابق ، ص: ٣٢٤.

٢) نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر وهو كتاب آخر أيام غرناطة، المؤلف: مؤلف مجهول، وهو رجل حربي عاصر الأحداث التي يرويها، المحقق: د. محمد رضوان الداية، الناشر: دار حسان– دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ.

ولم يكتفوا بذلك بل لاحقوهم في دارهم وبيوتهم، فكانوا يبحثون عن كل من يعبد الله خفيةً أو يقيم صلاته، حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك[١].

فكان حالهم أشبه بحال المسلمون المستضعفون قبل فتح مكة، إذ لا حول لهم ولا قوة إلا بالله، ولم يتركوهم النصارى عند هذا الحد فنظمت الدولة والكنيسة جهازًا جهنميًّا للقضاء على الإسلام حتى في قلوبهم، يسمى ب (محاكم التفتيش) هكذا أعلن الإسبان رسميًّا انقراض الإسلام في الأندلس، ولم يعودوا يذكرون اسم المسلمين بها إلا (بالنصارى الجدد)، أو المورسكيين، وهي كلمة تصغير (مورو) للتحقير، و(مورو) عندهم المسلم، ويسمي الأندلسيون أنفسهم في هذه الحقبة بالغرباء إشارة إلى قول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: "بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء"، رواه مسلم. ولكن مصائب هؤلاء الغرباء لم تكن إلا في بدايتها، إذ بقي الإسلام في قلوبهم وهم صامدون عليه[٢].

وسأبسط الكلام في المطلب القادم إن شاء الله الحديث عن هذه المحاكم وفضاعتها.

١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: الدكتور، إحسان عباس، دار النشر: دار صادر. بيروت ، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م.
٢) انبعاث الإسلام في الأندلس، ص:٦٥.

المطلب الثاني: نازلة في سقوط فرض الحج عن أهل الأندلس لعدم الاستطاعة

أولاً: الفتوى للنازلة:

سُئل ابن رشد[١]. رحمه الله تعالى . عمن لم يحج من أهل الأندلس في هذا الوقت، وهل الحج أفضل له أو الجهاد؟ وكيف لو حج الفريضة؟

فأجاب: (فرض الحج ساقطٌ في زماننا هذا عن الأندلس لعدم الاستطاعة. وهي القدرة على الوصول مع الأمن على النفس والمال. وإذا سقط الفرض صار نفلاً مكروهاً للضرر، فبان أن الجهاد الذي لا تُحصى فضائله أفضل وهو أبين من أن يُسأل عنه)[٢].

فلا بد من توفر شرط الوجوب لأداء فريضة الحج وهي أنه واجبٌ بالاستطاعة، عند توفر إمكان المسير، وهي القدرة على الوصول بلا مشقة عظمت وأمنٍ على نفسٍ ومال[٣].

ثانياً: الاستقراء التاريخي للنازلة:

كما أسلفنا بأن حال المسلمون كان أسوأ حال إذ منعوا من تأدية أمور دينهم، وأجبروا على الدخول إلى الدين النصراني، ولم يكتفوا النصارى بذلك بل وسُلبت حقوقهم حتى صاروا يُختطفون من حقولهم ويُباعون في سوق النخاسةِ عبيداً وأرقاء، وكما أسلفنا أن النصارى نيتهم فعلاً سحق المسلمين بعدما أنشأوا

---

١) هو ابن رشد الحفيد، محمد بن أبي القاسم أحمد ابن شيخ المالكية أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، عرض الموطأ على أبيه، وبرع في الفقه، كان مثالاً للعلم والفضل والتواضع، منخفض الجناح، وله تصانيف عديدة منها: بداية المجتهد، في الفقه، والكليات في الطب، وتولى القضاء في قرطبة وشهد له بالخير، وكتاب: منهاج الأدلة في الأصول، حبس في داره حتى توفاه الله، في أواخر سنة أربع. انظر: سير أعلام النبلاء ، ٢١ / ٣٠٨.

٢) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب، لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور: محمد حجي، دار النشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية. الرباط، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٣) التاج والإكليل لمختصر خليل، لمحمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدري الغرناطي، أبو عبد الله المواق المالكي، دار النشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، سنة الطبع:١٤١٦هـ-١٩٩٤م.

محاكم التفتيش، فالغرض منها وجود أدنى شبهه ضد المسلم، يُساق إلى المحاكمة ثم إلى قاعة التعذيب، وهذا وصفُ لهذه القاعة: (كانت قاعة التعذيب مظلمة رطبة، جدرانها سوداء، وقد ثُبِّتَ فيها مسامير نتنة قد صدئت، ويغلق عليها بباب من الحديد السميك، وفي أرضها سلاسل ضخمة مشدودة إلى حلقات في الأرض، وكانت لربط المذنبين حين تعذيبهم، وإلى جانب ذلك توجد مجالد من الجلد المعقود على الرصاص، ودواليب وسحابات ذات مسامير صدئة حادة ناتئة من الداخل تُطَّوَّق بها جبهة السجين، ثم يقوم المعذب بتضييقها شيئاً فشيئاً بواسطة مفتاح يدور بلولب حتى تغرز المسامير في الرأس، ثم هناك كلاليب ذات رؤوس حادة لسحب أثداء النساء من الصدور، وآلات لسل اللسان من أصله، وأخرى لتكسير الأسنان، وأحذية حديدية تُحمى لدرجة الاحمرار، ثم أحذية أخرى حديدية ذات مسامير من الداخل يضعونها في رجل السجين، ثم يأخذ الموكل بالتعذيب في تضييقها شيئاً فشيئاً، وسفافيد[١]حديدية متباينة الأشكال لتحمى في النار وتُستعمل لكيّ المعذب ، ثم مشنقة معلَّقة في السقف لكي تشنق المعذب نصف شنقة، فلا هو حيٌ فيُرجى ولا ميتٌ فيُوارى، ثم سلاسل ضخمة وأثقال حديدية معلقة في نواحي مختلفة في السطح ليُربطَ فيها السجين وبينها فتتجاذبه و تمزق أعضائه تمزيقاً في جهاتٍ متعددة، وتابوت عبارة عن خزانة حديدية يقفُ فيها المُعذَّب وفي بابها ست من الحراب القصيرة المثبتة، فإذا ما أغلق ذلك الباب بقوة دخلت حربتان في عين المُعذّب فتنفذان من مؤخرة الجمجمة، وتدخل حربة في قلبه، وأخرى في معدته، وأخريان في بطنه، ثم كانت توجد آلات كثيرة لطي الإنسان وكسر عظام ظهره، ثم أخرى لإنزال الماء البارد على رأسه بعد حلق شعره قطرةً قطره، حتى يُجنّ المسكين بعد ساعات، أو زمنٍ قليل، ثم اسفنج يُغمس في الماء المغلي

١) سفد ، جمعه سفافيد، وهي حديدة ذات شُعب معكوفة يُنظم فيها اللحم ليُشوى.انظر: لسان العرب ، ٣ / ٢١٨.

لسلق المُعذّب، ومطارق ثقيلة لسحق الرؤوس، ثم مائدة كبيرة وضعت في جانب البهو عليها ملاءات بيض وبجانبها برميلٌ للماء، فإذا ما أغمي على المُعذَّب من شدة الألم يضعونه عليها و يلفونه بملاءةٍ تبل بالماء البارد لإنعاشه، حتى إذا ما أفاق أعادوا تعذيبه...، وكان يحضر التعذيب طبيب عمله أن يفحص كل معذَّب وإنعاش المسكين بشراب ماء، ليحتمل العذاب فيُعاد تعذيبهُ من جديد، وكان يُحضر على المُعذَّب إبداء أي حركة أو صراخ أو أنين، وكان يُكلف بأن لا يرفع صوته، وقد اخترعوا لذلك آلة حديدية كانوا يضعونها في فم المُعذَّب المسكين، وقد جعلوا في تلك الآلة مربعاً على هيئة صليب ليتنفس منه المّعذَّب ولا يمكنه الصراخ منه)[١].

فهذا كان حالهم . ولا حول ولا قوة إلا بالله . حتى أن الفقهاء من المغرب وغيرها، كانوا يرسلون لهم الرسائل تثبيتاً لهم على دينهم، فضلاً عن أن يرسلوا لهم رسائل فتوى في أركان الإسلام، من فضاعة الحال فأصبح المسلم لا يأمن على نفسه ولا على عرضه وماله، فكيف له أن يؤدي فريضة الحج، وهو مغلوبٌ على أمره، بل وصل الحال إلى الفتوى بحُرمة السفر لأداء فريضة الحج لأهل الأندلس، كما أجاب عن ذلك أبو بكر الطرطوشي[٢]؛ لأنه كان في زمانهم فيه مخاطرة على النفس والمال والعرض، فأسقط علماء ذلك العصر أداء الحج في حقهم.

١) محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال وغيرها، علي مظهر، المكتبة العلمية، ١٣٦٦هـ.

٢) هو الإمام العلامة، القدوة الزاهد، شيخ المالكية أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن أيوب الفهري، الأندلسي، الطرطوشي، أخذ من الإمام أبي وليد الباجي مسائل الخلاف، رحل في طلب العلم إلى العراق، كان إماماً عالماً، زاهداً ورعاً، متورعاً زاهداً في الدنيا، له كتاب: سراج الملوك ، توفي . رحمه الله . في الإسكندرية في جمادى الأولى سنة عشرين وخمسمائة رحمه الله. انظر: سير أعلام النبلاء، ١٩ / ٤٩٠.

المطلب الثالث: نازلة في الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام

أولاً: الفتوى للنازلة:

كُتِبَ للإمام الونشريسي[١]. رحمه الله . هذه الفتوى التي نقلها في كتابه المعيار المعرَّب، وشدَّدَ في إلزام الأندلسيين بالهجرة بعد سقوط غرناطة: (الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، جوابكم يا سيدي . رضي الله عنكم ومتَّعَ المسلمين بحياتكم في نازلة ـ ، وهي أن رجلاً من أهل مربلة معروفٌ بالفضل والدين، تخلَّفَ عن الهجرة مع أهل بلده ليبحث عن أخٍ له، فقد قُتل في قتال العدو بأرض الحرب، فبحث عن خبره إلى الآن فلم يجده وآيس منه، فأراد أن يُهاجر فعرض له سببٌ آخر، وهو أنه لسانٌ وعونٌ للمسلمين الذميين حيث سكناه، ولمن جاورهم . أيضاً . من أمثالهم من غربية الأندلس يتكلمُ عنهم مع حكام النصارى فيما يُعرضُ لهم معهم من نوائب الدهر، ويُخاصمُ عنهم ويُخلصُ كثيراً منهم من ورطاتٍ عظيمة، بحيث أنه يعجزُ عن تعاطي ذلك عنهم أكثرهم ، بل قل ما يجدون مثله في ذلك الفن إن هاجر، وبحيث إنه يلحقهم في فقده ضررٌ كبيرٌ إن فقدوه، فهل يُرَّخَصُ له في الإقامة معهم تحت حكم الملة الكافرة؛ لما في إقامته هناك من المصلحة لأولئك المساكين الذميين مع أنه قادرٌ على الهجرة متى شاء؟ أو لا يُرَّخصُ له؟ إذ لا رُخصة لهم . أيضاً. في إقامتهم هنالك تجري عليهم أحكام الكفر ولاسيما وقد سمح لهم في الهجرة ، مع أن أكثرهم قادرون عليها متى أحبوا؟ وعلى تقدير لو رُخِّصَ له في ذلك

١) هو أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي التلمساني، أبو العباس، فقيه مالكي، تفقه على يد علماء تلمسان وثم نقمت عليه حكومتها أمراً ، فانتهبت داره و فر هو إلى فاس، إلى أن وافته المنيةُ بها، وعمره ثمانون عاماً، له تصانيف منها: المعيار المعرَّب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس و المغرب ، في اثني عشر مجلداً، وقد جمع فيه فتاوى المتقدمين والمتأخرين، وله شرح على وثائق القشتالي، وكتاب: القواعد في الفقه والفائق في الوثائق، توفي . رحمه الله . في صفر سنة ٩١٤هـ. انظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف، علق عليه: عبد المجيد خيالي ، دار النشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

فهل يُرَّخَصُ له . أيضاً . في الصلاةِ بثيابهِ حسب استطاعتهِ؟ إذ لا تخلو . في الغالب . عن نجاسة لكثرة مخالطتهِ للنصارى وتصرفهِ بينهم، ورقاده وقيامه في ديارهم لخدمة المسلمين حسبما ذكر؟ بيّنوا لنا حكم الله في ذلك مأجورين مشكورين إن شاء الله تعالى(١).

فأجبتهُ بما نصُّهُ: الحمد لله تعالى وحده. الجواب والله تعالى ولي التوفيق بفضله، أن إلهنا الواحد القهار، قد جعل الخزية والصغار، في أعناق ملاعين الكفار، سلاسلاً وأغلالاً بها في الأقطار، وفي أمهات المدائن والأمصار، إظهاراً لعزة الإسلام ، وشرف نبيه المختار، فمن حاول من المسلمين عصمهم الله ووفرهم انقلاب تلك السلاسل والأغلال في عنقه فقد حاد الله ورسوله وعرض بنفسه إلى سخط العزيز الجبار، وحقيقٌ أن يكبكبه الله معهم في النار، كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقويٌ عزيز، فالواجب على كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر السعي في حفظ رأس الإيمان، بالبعد والفِرار عن مساكنة أعداء حبيب الرحمن، والاعتلال لإقامة الفاضل المذكور بما عرض من غرض الترجمة بين الطاغية وأهل ذمته من الدجن العصاة لا يخلص من واجب الهجرة ولا يتوهم معارضة ما سطر في السؤال من الأوصاف الطردية لحكمها بالواجب إلا متجاهل أو جاهلٌ معكوس الفطرة، ليس معه من مدارك الشرع خبرة، لأن مساكنة الكفار، من غير أهل الذمة والصغار، لا تجوز ولا تُباح ساعة من نهار، لما تنتجه من الأدناس والأوضار، والمفاسد الدينية والدنيوية طول الأعمار. منها أن غرض الشرع أن تكون كلمة الإسلام وشهادة الحق قائمة على ظهورها عالية على غيرها منزهة من الازدراء بها، ومن ظهور شعار الكفر عليها، ومساكنتهم تحت الذل والصغار تقتضي ولابد أن تكون هذه الكلمة الشريفة العالية المنيفة سافلة لا عالية ومزدرى بها لا منزهة، وحسبك بهذه المخالفة للقواعد الشرعية

١) المعيار المعرب ، ٢ / ١٣٧، ١٤٠.

والأصول وبمن يتحملها ويصبر عليها مدة عمره من غير ضرورةٍ ولا إكراه...، ومنها السبة الأذية في العرض، وربما كانت في البدن والمال، ولا يخفى ما فيه من جهة السنة و المرؤة، ومنها الاستغراق في مشاهدة المنكرات، والتعرض لملابسة النجاسات ووأكل المحرمات والمتشابهات[١].

وقد نقل لنا الإمام الونشريسي في كتابه ذاته، أنه نهى عمر بن عبد العزيز . رحمه الله . عن الإقامة بالأندلس؛ لأنه كان مخوفاً في هذه الإقامة، في أمور منها: نقض العهد من الملك والتسلط على النفس والأهل والولد والمال، وهو الإمام العادل المتفق على دينه وصلاحه ونصيحته لرعيته وخوفه على التغرير بهم، فقد نهى عن الإقامة في الجزيرة الخضراء، وقد كان جهاداً ورباطاً لا يُجهلُ فضله، ومع ما كان فيه المسلمون من وفرةٍ في العدد والعدة، فكيف بمن ألقى بنفسه وأهله وماله وأولاده تحت حكم النصارى، اعتماداً على وفائهم بعهدهم في شريعتهم، ونحن لا نقبلُ شهادتهم بالإضافة إليهم، فضلاً عن قبولها بالإضافة إلينا، وكيف نعتمدُ على زعمهم بالوفاء مع ما وقع من هذا التوقيع ومع ما يشهدُ له من الوقائع عند بحث واستقراء الأخبار في معمور الأقطار، ومنها الخوف على النفس والأهل والولد والمال أيضاً، من شرارهم ومغتاليهم، هذا على فرض وفاء دهاقينهم وملكهم. ومنها الخوف من الفتنة في الدين، وهب أن الكبار العقلاء قد يأمنونها، فمن يؤمن الصغار والسفهاء وضعفة النساء إذا انتدب إليهم دهاقين الأعداء وشياطينهم ، ومنها الخوف على فتنة على الابضاع والفروج...، ومنها الحوف من سريان لسانهم ولباسهم وعوائدهم المذمومة إلى المقيمين معهم بطول السنين، كما عرض لأهل آبلة وغيرهم، وفقدوا اللسان العربي جملةً، وإذا فقد اللسان العربي جملةً فقدت متعبداته...، ومنها التخوف من التسلط على المال بإحداث الوظائف الثقيلة والمغارم المجحفة المؤدية إلى استغراق المال وإحاطة الضرائب الكفرية به في

١) المعيار المغرب ، ٢ / ١٤٠.

دفعةٍ واحدة في صورة ضرورة وقتية أو في دفع...، فقد ثبت بهذه المفاسد الواقعة و المتوقعة تحريم هذه الإقامة، وحظر هذه المساكنة المنحرفة عن الاستقامة، من جهاتٍ مختلفةٍ متعاضده مؤديةً إلى معنىً واحد، بل قد نقل الأئمة حكم هذا الأصل إلى غيره لقوته وظهوره في التحريم، فقال إمام دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس . رضي الله عنه .: (إن آية الهجرة تعطي أن كل مسلم ينبغي أن يخرج من البلاد التي تغير فيها السنن ويعمل فيها بغير الحق فضلاً عن الخروج والفرار من بلاد الكفرة وبقاع الفجرة، ومعاذ الله أن تركن لأهل التثليث أمةٌ فاضله توحدهُ، وترضى بالمقام بين أظهر الأنجاس الأرجاس وهي تعظمه وتمجده...)[١].

ثانياً: الاستقراء التاريخي للنازلة:

فكما هو واضحٌ في الفتوى أن حال المسلمين في حرج وبحق كانت فترةً حرجة في تاريخ المسلمين، فهم تحت الحكم النصراني، وقد عرضت لهم الكثير من النوازل، حتى لم يتبقى لهم سوى خياراتٍ ثلاث: إما الموت، أو التنصير بالإجبار، أو الهجرة خارج البلاد[٢] ، حيث اتجه المسلمون بالهجرة إلى غرناطة واتخذوها عاصمةً لهم، بعد ما احتل النصارى أغلب مدن الأندلس، لأنها أمنع المدن حصوناً وأكثرها عدداً وعدة، ولكن بعد حصارٍ دام أكثر من سبعة أشهر، سقطت غرناطة وهي آخر معقل من معاقل المسلمين في يد فرناندو والملكة اليزا، تعاهدوا للكونت تندليا أن يحسن معاملة المسلمين بعدما كتبوا المعاهدة للمسلمين[٣]، فهاجر بناءً على هذه المعاهدة وأنه يسمح للمسلمين الهجرة إلى المغرب، الكثير من أشراف غرناطة، بعدما باعوا أملاكهم[٤] واستتب الأمر للمسلمين حيث أحسوا ببعضٍ من الأمن والدعة، واتضحت أخلاق المسلمين

١) المصدر السابق ، ٢ / ١٤٠ ، ١٤١.
٢) تاريخ العرب و حضارتهم في الأندلس ، ص ٣١٠.
٣) دولة الإسلام في الأندلس ، ٥ / ٢٤٦.
٤) انبعاث الإسلام في الأندلس ، ١ / ٥٥.

الحسنة، وبدأت الحياة تسير بشكل متناغم بين المسلمين، وأبرزوا جمال الإسلام وتميزه، محتفظين بدينهم ولغتهم وتقاليدهم، وكانت الكنيسة البابوية ما زالت منذ أن استولى فرناندو عليها تسير على نهجها و حقدها على المسلمين، فتحرض على إجلاء المسلمين، أو إرغامهم على النصرانية بالقوة الجبرية، أو بيع أملاكهم والجرة إلى أرض المغرب لكن الكنيسة الإسبانية كانت في ترددٍ كبير ؛ لأن المسلمون كانوا بين رعاياهم أنشط و أفضل العناصر من ناحية معرفتهم بأرضهم، واستغلالها أفضل استغلال، فقد كان المسلمون يتفوقون في شتى العلوم والفنون والمهن، وقد كانوا مثالاً نادراً حسناً في مزاولة التجارة على شتى أنواعها بكل نجاحٍ وأمانةٍ وشرفا[١]، لكن لم يبقى الحال كما أراد المسلمون، إ أرغموا على الدخول إلى النصرانية، حتى أن بعضاً منهم باعوا أملاكهم، وحصلوا على أثمانها، وهاجروا فراراً بدينهم، إلى المغرب ثم يعودون إلى الإسلام، فما لبثت الكنيسة البابوية تضغط على الملوك النصارى لمنع هجرة المسلمين، فصدر قرار من الفونسو الرابع، بمنع المسلمين من الهجرة ولو دفعوا خمس أملاكهم[٢]، على غرار ما كان يعامله المسلمون للمستعربين الإسبان حينما دخلوا الأندلس لأول مرة و طبقوا تعاليم الدين الإسلامي السمحة فيهم ، حتى تأثر كثير منهم ودخلوا في الإسلام طواعيةً بلا إكراه[٣]، من هنا يتبين الحقد النصراني الكبير على المسلمين، حيث حاول الكثير الهجرة والفرار من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، لكن ما لبث أن صدر فيهم الحكم بالإعدام حرقاً[٤].

١) المرجع السابق.
٢) انبعاث الإسلام في الأندلس ، ١ / ٨٥.
٣) محنة المسلمين في الأندلس ، ص:١٦٥.
٤) دولة الإسلام في الأندلس، ٥ / ٣٢٣.

الخاتمة

تمت هذه الدراسة بعون من الله ـ تعالى ـ وقد خرجتُ منها بعدة نتائج، منها:

١ ـ أهمية قراءة التاريخ وما مر به من حوادث فيها من العبر، حتى يستفيد منها أولي الألباب، لإسقاطها على الواقع.

٢ ـ أهمية علم فقه النوازل في كل عصر، لتجدد المسائل التي لا غنى لها عنه.

٣ ـ تتضح لنا قدرة الفقه الإسلامي وفعاليته لتقديم الحلول الناجحة التي تستجيب لواقع أي عصر ومستجداته.

٤ ـ حال المسلمين من أهل الأندلس المرير، وتثبتهم من دينهم وهم في أصعب حال.

٥ ـ غدر النصارى بالمسلمين مما يدل على أنهم لا يُؤمنون في أي مكانٍ وزمان.

٦ ـ دور العلماء في تثبيت أهل الأندلس على دينهم، من خلال إظهار الصورة السمحة للدين الإسلامي العظيم، وأن الله لا يكلفُ نفساً إلا وسعها.

٧ ـ عظمة الدين الإسلامي وسماحة مبادئه على الإنسانية، وأنه أعظم دين عرفته البشرية من حيث التكاليف وأن بعضها قد يصل إلى حد الإسقاط عند العجز.

وصلى الله على نبينا محمد و على آله و صحبه و سلَّم.

فهرس المصادر والمراجع:

١- مجموع الفتاوى، لابن تيمية، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، دار النشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكةالعربيةالسعودية، سنة الطبع: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٢- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر بن أبي شيبة، عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٣- العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن الفراهيدي البصري، ٧ / ٣٦٧، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار النشر: دار ومكتبة الهلال.

٤- مختار الصحاح، لزين الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، ١ / ٣٠٨، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، دار النشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، سنة الطبع: ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٥- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور، ١١ / ٦٥٦، دار النشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة، سنة الطبع: ١٤١٤هـ.

٦- مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس القزويني الرازي، ٥ / ٤١٧، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار النشر: دار الفكر، سنة الطبع: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٧- معجم لغة الفقهاء، لمحمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي، ٤٩٧، دار النشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٨- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف با بن قيم الجوزية،١/ ٢٨، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه

وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، شارك في التخريج: أبو عمر أحمد عبد الله أحمد، دار النشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٣هـ.

٩- روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، الشهير بابن قدامة المقدسي، ٢ / ١٤٥، دار النشر: مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

١٠- الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية، عابد بن محمد السفياني، ١ / ٥٤١، وهي رسالة دكتوراه من كلية الشريعة بجامعة أم القرى، الناشر: مكتبة المنارة، مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

١١- نوازل الزكاة «دراسة فقهية تأصيلية لمستجدات الزكاة»، لعبد الله بن منصور الغفيلي، ص: ٢٧، دار النشر: دار الميمان للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية، القاهرة – جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

١٢- الفِقهُ الميَسَّر، للدكتور: عَبد الله بن محمد الطيّار، والدكتور: عبد الله بن محمّد المطلق، والدكتور: محمَّد بن إبراهيم الموسَى، ١٣ / ٧ ، ٨ ، دار النشر: مَدَارُ الوَطن للنَّشر، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى ، سنة الطبع: ١٤٣٢/ ٢٠١١.

١٣- فقه النوازل في العبادات، لخالد بن علي بن محمد بن حمود بن علي المشيقح، ص٢ ، ٣ .

١٤- فقه النوازل للأقليات المسلمة «تأصيلا وتطبيقا»، للدكتور: محمد يسري إبراهيم، ١ / ٦٣ ، أصل الكتاب: رسالة دكتوراه في الفقه الإسلامي من كلية الشَّريعة والقانون بجامعة الأزهر، دار النشر: دار اليسر، القاهرة – جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ سنة الطبع ٢٠١٣ م.
١٥- انبعاث الإسلام في الأندلس، لعلي بن محمد المنتصر بالله الكتاني، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
١٦- دولة الإسلام في الأندلس، لمحمد عبد الله عنان المؤرخ المصري، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.
١٧- التاريخ الأندلسي من الفتح حتى السقوط، للدكتور: عبد الرحمن علي الحجي، ص١٥٨، دار النشر: دار القلم، دمشق بيروت، الطبعة الثانية، سنة الطبع: ١٤٠٢هـ ١٩٨١م.
١٨- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، لمحمد عبد الله عنان، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة: الثالثة، سنة الطبع: ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.
١٩- نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر وهو كتاب آخر أيام غرناطة، المؤلف: مؤلف مجهول، وهو رجل حربي عاصر الأحداث التي يرويها، المحقق: د. محمد رضوان الداية، الناشر: دار حسان–دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ.
٢٠- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب، لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور: محمد حجي، دار النشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية. الرباط، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٢١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: الدكتور، إحسان عباس، دار النشر: دار صادر- بيروت ، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م.
٢٢- التاج والإكليل لمختصر خليل، لمحمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدري الغرناطي، أبو عبد الله المواق المالكي، دار النشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، سنة الطبع:١٤١٦هـ-١٩٩٤م.
٢٣- محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال وغيرها، علي مظهر، المكتبة العلمية، ١٣٦٦هـ.
٢٤- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، للدكتور خليل إبراهيم السامرائي، والدكتور عبد الواحد ذنون طه، والدكتور ناطق صالح مصلوب، دار النشر: دار الكتاب الجديد المتحدة . بيروت لبنان، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ٢٠٠٠م.
٢٥- محنة العرب في الأندلس، لأسعد حومد، دار النشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٩٨٨م.
٢٦- سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، دار النشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، سنة الطبع: ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.
٢٧- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف، علق عليه: عبد المجيد خيالي ، دار النشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.